التأويل قراءة جماعية ومحاولة فهمية بين المسموح و الممنوع

Interpretation is a collective reading and an understanding attempt between what is allowed and what is forbidden

د/ عمار قرفي *

تاريخ الإرسال: 2018-12-17	تاريخ القبول:.2019-06-08	تاريخ النشر:2019/07/20

الملخص:

ان تفاسير القران التي ظهرت عبر التاريخ ما هي الا قراءة جماعية لنصوص الوحي المنزلة على سيدنا محمد صل الله عليه وسلم، تشكلت من خلال الوعي الثقافي و المعرفي الذي يعكس التوجه السياسي و تراكمات المفاهيم التي سادت المجتمع في فترة زمنية معينة، و بالتالي فان كل تفسير يمثل جزءا من المعرفة الكلية التي يتضمنها القران، ويمثل أيضا محاولات فهمية ينتهي الى سقف حدود المعرفة التي تنقل الينا مخيال التفكير المهيمن على طبقة النخبة من رجالات العلم و الفقه و الادب و اللغة و التاريخ، وأهل المذاهب و أصحاب الملل و النحل و السياسة.

اذا يمكننا أن نقول: ان التفسيرات التي ظهرت في التاريخ هي تأليف الجماعة وفق فكر و قراءة صنعتها الاحداث و الطوارئ و المتغيرات و مجريات الاحداث و التحولات التي طالت الحياة السياسية و الاجتماعية و الثقافية بعد انتشار الاسلام وتوسع الجغرافيا الاسلامية.

و السؤال المطروح الان: هل يمكننا أن نستمد من هده التأليفات التي تمثل قراءة أو محاولة فهمية لكتاب الله قاعدة تأصيلية لفهم نصوص الوحي؟ بمعنى أنه لا يجوز لنا أن نخرج عن حدود تلك القراءة التي صنعها في مخيلة المجتمعات المسلمة نخبة من الشراح الاوائل الذين قرأوا القران في مرحلة زمنية معينةّ ؟

* جامعة باجي مختار – عنابة البريد الإلكتروني: guerfiamar02@gmail.com

المنارة للاستشارات

هل يمكننا الان تأسيس مدرسة نقدية تنظر الى هذه التأليفات مجرد محاولة فهمية للقران ارتبطت بزمن له سياقاته، وانساقه الثقافية وتحولاته الحضارية بصفة عامة، ومن ثم لا نستطيع أن نتخذ منها تأصيلا شرعيا نقيس عليها ما صدر بعدها من أنظار وقراءات ومحاولات فهمية اخرى؟ .

Abstract:

The interpretations of the holy Quran, which appeared throughout history, are only a collective reading of the sacred versts revealed to the prophet « Muhammad peace be upon him », formed through cultural and knowledgement thought, that reflects the political orientation and accumulations of concepts that prevailed in the society in those periods.

So each interpretation represents a part of the total knowledge contained in the Quran.

and also represents attempts for understanding it's texts limited by the limits of knowledge overcome the imagination of the dominant thinking of the elites :scientists of religion , literature, language and history, thoughts of different doctrines and politics.

The question now is : Can we draw from these efforts-which are considered as reading or an attempt to understand the holy book - (a foundations for understanding the texts of Revelationit means that we can't get out of the limits of previous readings , which made in the imagination of Muslim communities over history.

Can we now organize a critical school that looks at these interpretations as an attempt of understanding the Quran linked to time of its cultural contexts and civilizational transformations in general, and therefore we can't considerate it as a legalization and a single understanding of the Quran.

*** *** ***

المقدمة:

ان تفاسير القران التي ظهرت عبر التاريخ ما هي الا قراءة جماعية لنصوص الوحي المنزلة على سيدنا محمد صل الله عليه وسلم، تشكلت من خلال الوعي الثقافي و المعرفي الذي يعكس التوجه السياسي و تراكمات المفاهيم التي سادت المجتمع في فترة زمنية معينة، و بالتالي فان كل تفسير يمثل جزءا من المعرفة الكلية التي يتضمنها القران، ويمثل

ISSN 2437-0819 EISSN: 2602-6333

أيضا محاولات فهمية ينتهي الى سقف حدود المعرفة التي تنقل الينا مخيال التفكير المهيمن على طبقة النخبة من رجالات العلم و الفقه و الادب و اللغة و التاريخ، وأهل المذاهب و أصحاب الملل و النحل و السياسة.

اذا يمكننا أن نقول: ان التفسيرات التي ظهرت في التاريخ هي تأليف الجماعة وفق فكر و قراءة صنعتها الاحداث و الطوارئ و المتغيرات و مجريات الاحداث و التحولات التي طالت الحياة السياسية و الاجتماعية و الثقافية بعد انتشار الاسلام وتوسع الجغرافيا الاسلامية.

و السؤال المطروح الان: هل يمكننا أن نستمد من هده التأليفات التي تمثل قراءة أو محاولة فهمية لكتاب الله قاعدة تأصيلية لفهم نصوص الوحي؟ بمعنى أنه لا يجوز لنا أن نخرج عن حدود تلك القراءة التي صنعها في مخيلة المجتمعات المسلمة نخبة من الشراح الاوائل الذين قرأوا القران في مرحلة زمنية معينةّ ؟

هل يمكننا الان تأسيس مدرسة نقدية تنظر الى هذه التأليفات مجرد محاولة فهمية للقران ارتبطت بزمن له سياقاته، وانساقه الثقافية وتحولاته الحضارية بصفة عامة، ومن ثم لا نستطيع أن نتخذ منها تأصيلا شرعيا نقيس عليها ما صدر بعدها من أنظار وقراءات ومحاولات فهمية اخرى؟

طرح الاشكالية:

الفكر الاسلامي له هويته الذاتية التي تميزه عن غيره، كونه له مرجعيته التي تحدد بناءه المعرفي، ومنهجيته في البحث و التحليل و الاستنتاج وبلوغ الغاية.

و الفكر الاسلامي متنوع ومتعدد، فيه التفسير و الفقه و علم الكلام و الحديث وعلم الأصول و علم التصوف وعلوم اللغة و الفلسفة، وكلها علوم متداخلة غير منفصلة عن بعضها البعض.

والمتتبع للفكر الاسلامي يرى ما لهذا التعدد و التنوع من أثار انعكست على الحضارة الاسلامية و الثقافة الاسلامية تتجلى في انفجار هذه العلوم الى اتجاهات ومذاهب فللتفسير مذاهب، وكذا علم الفقه، وعلم الكلام، و التصوف، وعلوم اللغة.....الخ

المنارة للاستشارات

ولعل السبب في هذا الانفتاح نحو الفضاءات المتعددة رغم وجود "نواة" يتشارك فيها أصحاب الاتجاهات المختلفة وتلك النواة هي الوحي "القرآن" فان السبب يكمن في الأداة التي تكشف عن فهم القران وتلك هي الاشكالية التي شغلت التفكير الاسلامي ومازالت الى يومنا هذا مشغلة الباحثين و الدارسين.

انها اشكالية "العقل" ما دوره وما حظه في فهم النص القرآني؟ وما حدود تحركه؟ وشروط نشاطه؟

لقد شكل النقل و العقل قطبين أو مركزين في انتاج الفكر و الثقافة و المعرفة بصفة عامة في صناعة تلك الترسانة والثروة التشريعية و التفسيرية و الفلسفية في مساحة الثقافة و الحضارة و البيئة الاسلامية.

لقد أكد الدكتور محمد الكتاني أن " الفكر الاسلامي على مدى تاريخه الطويل ظل رهين الازدواجية العميقة بين هذين الجهازين: جهاز النقل أو النص الشرعي، وجهاز العقل أو الاستدلال العقلي"[1]

وقد عبر عن هذه الفكرة الدكتور محمد الجابري بإشكالية التوفيق بين العقل و النقل.[2]

ومهما يكن من أمر، فان هذه الاشكالية ظلت تحكم الفكر الاسلامي الي اليوم، و الثقافة الاسلامية في تاريخها الطويل عرفت جدلا كبيرا في مختلف حقولها المعرفية بين هذين القطبين، أيهما أرجح؟ أو بمعنى أخر أيهما أكثر نسبية في التعامل مع النصوص الشرعية؟

" فالعقل و النقل صفتان ملازمتان للتفكير الاسلامي، وانما الخلاف كان متعلقا بالأولوية وبنوعية العلاقة بينهما"[3]

ان موقع هذه الاشكالية "اشكالية النقل و العقل" تأتي على رأس الأولويات ، لأن الثقافة في بيئتها الاجتماعية الاسلامية لا تتحرك الا في الاطار الديني، ولهذا وصف نصر حامد أبو زيد الحضارة الاسلامية بأنها "حضارة النص"[4] أي أن النص الديني عنصر أساسي في مكوناتها ، ومدخل مهم في فهمها وتفسيرها.

المنارة للاستشارات

الا أن النص لا يدرك الا بالعقل كما قال تعالى: "لقوم يعقلون"[5]

والاشكالية في الفكر الاسلامي ليس في ضرورة الغاء أحدهما، وانما في أن العقل حين يفكر في قضايا الدين قد يميل الى التسليم بظاهر النص، وقد يتوغل في التأويل بحثا عن مزيد من المعرفة.

وفي كلتي الحالتين، سيظل الغطاء الديني مستحضرا مهما كانت الدوافع سياسية أو مذهبية أو غيرها.

و اشكالية النقل و العقل في الفكر الاسلامي هي في صميمها تعبير عن تنوع العقليات، وتباين في المستويات و اختلاف في التخصصات، وبهذا كانت الاشكالية واحدة، وطرق معالجتها مختلفة، وكان النص الديني واحدا، وطرق فهمه مختلفة، وكان العقل واحدا أيضا بينما كانت مناهج توظيفه مختلفة، فنحن أمام مسألة يظهر من خلالها التنوع داخل الوحدة، وهو ما يدل على ثرائها، ويغري بدراستها.

ان الحضارة الاسلامية تشكلت من عنصرين أساسيين هما: النقل و العقل' وقد انعكسا في ما يسمى بالتفسير و التأويل، وهما يمثلان زمنين اثنين كلاهما يعتبر مركزا مهما من مراكز نشأة الحضارة العربية الاسلامية هما زمن التنزيل أي زمن نزول النص القرآني، وزمن التأويل أي الزمن الثاني الذي مازال مفتوحا في حاجة الى اعادة تشكيله وقراءته.[6]

التأويل و التفسير و العلاقة بينهما:

ان أليات التفسير المعتمدة لم تكن متناسبة مع أفق المعنى الذي تحمله لغة النص القرآني ، ولذلك نلاحظ أن التفسير " ازداد اتساعا من الزمن و أن اللغة التفسيرية أصبحت غير قادرة على استيعاب المعاني التي تشتت عقب كل خروج دلالي عن الخط البياني الذي رسمته نحوية و بلاغية النص القرآني"[7]

ولذلك أضاف مفسرون أخرون وعلماء أصوليين أليات أخرى أكثر استجابة لمحتويات النص القرآني، وأكثر انسجاما مع سيولة معاني القرآن وحمولة ألفاظه التي تتسع لكل أفاق العصور وما تفكر فيه أذهان البشر.

المنارة للاستشارات

ومن هؤلاء العلماء الامام الشاطبي الذي اعتمد على فكرة مقاصد الشريعة لإعادة تجميع ما تشتت من معاني النص القرآني التي تتقيد بتلك العلوم التي فرضها السابقون، وبقيت معاني القران محاصرة لفترة طويلة من الزمن الى أن جاء علماء الأصول و الفلاسفة وعلماء الكلام ورفعوا عنه ذلك الحصار ففكوا عنه تلك القيود بفعل ما ابتكروه من براهين عقلية و أصولية وكلامية، جعلت معنى النص القرآني يتنفس، ومن استطاع أن يحيط بثقافة الانسان وان التأويلية في الحقيقة هي اقحام لأفاق الزمن بثقافته ومكوناته الفكرية لإعادة تشكيل مفهومات النص القرآني وفق التساؤلات التي تثيرها وتنشئها تخيلات الانسان المعرفية " وفي القران عرض لمختلف الاسئلة المحركة للقضايا الايمانية أو التي تفترض اطار البياني التاريخي، ثم يتحول الجدل الى فعل متناغم مع سيولة المعاني القرآنية (.....) ثم ترك المجال مفتوحا للاستقبال اللانهائي لمعاني النص القرآني من خلال توليد " الحالة" التي تسمح بترجيح الاشارات و تعديل العلامة النهائية للإنسان"[8]

ويعد موضوعا التفسير و التأويل لمن الموضوعات المطروقة في مباحث علوم القرآن، ويعد فهمها فهما عميقا مدخلا أساسيا في فهم النص القرآني الذي تعد قراءته ضرورية، ويعد فهمه ضروريا أيضا في كل جيل من أجيال البشرية.

و القراءة المتكررة للنص القرآني في أزمنة تختلف تركيبتها العقلية و النفسية تقتضي وعيا تأويليا من قراءة دلالية متعددة تحددها طبيعة العصور وثقافتها، فتحول النص القرآني من خلال المعرفة المكتسبة و الفهم الاضافي الذي يضيفه المؤولون المجتهدون الى اعادة قراءته في كل مرة وفهم أليات.

وبما أن الحضارة العربية الاسلامية هي حضارة النص على حد تعبير نصر حامد أبو زيد[9] فان عملتي التفسير و التأويل يمثلان عنصرين مهمين في تشكيل هوية هذه الحضارة، باعتبار أن النص القرآني هو محورها وروحها و محتواها الأصلي.

فالتفسير في الحقيقية هو علم يجمع كل العلوم الممهدة للتأويل يمثل جهد المؤول في صرف الآية الى ما تحتمله من المعاني، وعلى ذلك يكون التفسير جزءا من التأويل[10].

ان اختيار نهج التفسير له ما يبرره عند أصحابه، وهو اكتمال الدين في عصر النبي (ص)، أي عصر تكون النص القرآني و شارحه النص النبوي أي الحديث.

قال الطبري: " فالله عز وجل لم يقبض نبيه اليه الى بعد اكمال الدين به لعباده، بأن لله في كل حادثة ونازلة حكما موجودة في النص او دلالة "[11]

وقد كان كثير من الصحابة يكتفون بالمعنى الاجمالي للآية، لأن السؤال في حياتهم لم يكن مطروحا بإلحاح[12]. لأنهم كانوا يعيشون أجواء ايمانية متكاثفة أعاضتهم عن السؤال في كثير من القضايا الدينية على خلاف الأزمنة اللاحقة حيث انفتحت فيها دلالة النص القرآني على احتمالات الاسئلة التي لم تكن مطروحة في عصر الصحابة و التابعين، ولذلك شاع في زمنهم السماع و الاتباع و الرواية وقل فيهم الابتكار و التنويع و تعدد الفهم.

وكان التأويل بهذا المعنى عملية اختراق لفهم الجيل الأول للإسلام عن طريق تحليل الالفاظ في النص القرآني بحثا عن الدلالات الجديدة التي تحتملها، وفق معطيات الحضارة ومستجدات العصور....

مكانة التأويل في الفكر الاسلامي:

التأويل هو الوجه الاخر للنص[13] ويعتبر من الظواهر التي لها أهميتها في الفكر الاسلامي وخطرها في أن واحد.

لقد كان للتأويل دورا هاما في كل المجالات المعرفية الاسلامية بدءا من اللغة نفسها مرورا بالتفسير و الفقه و الكلام و الفلسفة و التصوف، وذلك لارتباط هذه العلوم أساسا بالدلالة الاسلوبية بالنص القرآني، ومحاولة وصولها الى الغاية القصوى من مقاصد النص القرآني.

ولقد اتخذ العلماء التأويل وسيلة لاستجلاء النص القرآني ومعرفة معانيه التي ترمي اليها العبارات، فقد بدأ مبكرا اذ ارتبط بالمعارك الأولى بين مختلف الاتجاهات السياسية و الكلامية وارتبط كذلك بالخلافات التي أثيرت حول المحكم و المتشابه في القرآن، وارتبط كذلك بالرد على الطاعنين في القرآن وفي اعجازه، وارتبط كذلك بانتقال الفكر المترجم الى الثقافة الاسلامية.

المنارة للاستشارات

ومن هنا يمكننا أن نشارك بومدين بوزيد عندما تساءل قائلا: "هل يمكننا القول أن الحضارة العربية الاسلامية لم تقم على "النص" فقط، بل أيضا على التأويل؟ أي انتاج نص أخر مؤول في ظاهره يحافظ على النص الأصلي الذي لحقه التأويل، ولكن في عمقه الباطني متحرر منه"[14]

واذا كان زمن نزول النص قد انتهى ولذلك ارتبطت حركات التفسير السلفية بفهمه زمن النزول، وجعلت هدفها التكيف مع النص كما فهمه الاولون الذين شهدوا نزوله، ثم جعلوا غاية همهم أن يسود هذا الفهم ويسيطر على كل قراءة وكل فهم اخر مستنبط بفعل خارجي، فان زمن التأويل لم ينته، بل هو فعل يحاول كل مرة أن يعيد قراءة النص واحتذاءه ما أمكن، والتما هي معه، مراعيا ما تحدثه العصور من اشكاليات وتحولات في الثقافة خاصة.

" ان التأويل في الحقيقة هو تعدد مستويات القراءة للنص القرآني وهو بالأحرى عملية انتقال من مجال اللغة الى مجال الثقافة"[15]

فالتأويل أداة مهمة في استقراء دلالات لغة النص القرآني للوصول الى مفهوم اشمل للكون و الانسان و العلاقات.

ومن هنا تكمن اهمية التأويل في اكشاف المعنى الغامض وازالة اللبس عن الكلمات و الالفاظ التي تتداخل علاقاتها في النص،، وخاصة أن النص القرآني تميز عن النصوص الأخرى بجماله الفني، ومستواه الأدبي الرفيع، فأضاف الى الكلمات و الألفاظ رونقا وزينة وجمالا وحولها من دلالاتها الحقيقية الى معان أخرى لتؤدي أغراضا أخرى لا يمكن الوصول اليها الا اذا انتقلت الألفاظ من حقيقتها الى مجازيتها.

ولذلك نجد المؤول لا يكتفي بالنظرة الاولى في النص بل يتعداها الى نظرات أخرى يفرضها ذوقه الفني وحدسه اللغوي، أو يضع لها احتمالات عقلية تفرضها عليه ثقافته أو مذهبه أو اتجاهه في الحياة.

وقد ذكر السيوطي أن التأويل هو توجيه اللفظ الى ما توحيه المعاني المختلفة من احتمالات[16]

و التأويل من هذه الناحية يخضع لقناعات صاحبه التي يريد أن يروج لها ويدعو الاخرين لاعتقادها و الاقتناع بها.

ولقد وظف النص القرآني باستمرار في السجلات الايديولوجية و الفكرية بتأويلات مختلفة ومتناقضة، ولقد اعتاد المؤولون من مختلف الطوائف و المذاهب تجاوز النص أو الخروج عنه أو حتى هدمه بما تتيحه لغة هذا النص من امكانيات لغوية كمجازيتها التي تسمح بالتعدد في الفهم، وبتجدد في المعنى تلحقه الذات المؤولة.

اذ ما كان يهم المذاهب و النحل الاسلامية هو تثبيت أراءها الايديولوجية ولو على حساب مضمون النص ذاته، فكان خطابهم يتجه لاستثمار النص ايديولوجيا في صراعهم على السلطة، وفي معارضتهم لها، وما كانوا يضعون حسابا للشروط اللسانية و البلاغية.

لكونه يقود نحو مخبوء فيه لابد من الكشف عنه، بينما يعتبر التفسير بمثابة وصف للنص، واعادة لما قيل في زمن الصفوة وبالتالي ليس فيه أي مجال لأي ابتكار أو ابداع، فهو مجرد منهج تعليمي يعتمد على النقل و التكرار، وليس الاجتهاد و الابتكار، فالمفسر لا يضيف شيئا جديد، ولا يشارك في دفع المعرفة الاسلامية الى النمو و التطور.

ومن هنا تبين أن المفسر هو الذي يبني مواقفه على أقوال مروية ثبتت صحتها،، ولذلك فهو عندما يصدر أحكامه يكون متيقنا من صحتها لأنها تستند الى حجج قوية لا تقبل الشك أو الترجيح، وهذا يعني ان المعرفة الدينية لا تتطور عند المفسرين، لان ما نقل عن النبي وأصحابه لا يجوز مخالفته أو تجاوزه، بل يجب الاقتداء به والتزامه في جميع الأزمنة، لان المعرفة الدينية قد شملت كل شيء وأحاطه بكل شيء، وهي تحمل فهما لجميع العصور.

وهنا يبدو أن المفسر مجرد حافظ وناقل فقط، ولذلك فان المضامين التي تصل الينا عن طريق التفسير لا تتغير، لأن المفسر لا يبدل جهدا عقليا في تحليل النصوص ولا يستجيب لأي ضغط اجتماعي أو سياسي بل يبذل كامل جهده في البحث عن المرويات وتمييز صحيحها من ضعيفها.

المنارة للاستشارات

ولذلك لا يمكن أن يتغير فهمهم للأشياء و التواريخ والعالم والناس، لانهم يحتكمون الى صحة الرواية فقط.

فمتى تثبت صحتها عندهم، فان مضمونها والمغزى منها يبقى حيا مستمرا رغم كل الاحوال و الظروف واذا كان التأويل لا يخلو من الخطاب الموجه لإقناع الفئات الأخرى، فان أهميته تبدو في كونه وسيلة إثرائية للفكر و الثقافة في المجتمع، لأنه يفتح المجال لمقروئيات متعددة للنصوص الخطابية، وان كان بهذه الكيفية لا يسلم من الوقوع في أخطاء فادحة ومنزلقات خطيرة اذا كان المؤول يدافع عن افتراضات و احتمالات خاطئة، ونستطيع أن نحكم حينذن على كل النتائج التي يتوصل اليها المؤول بأنها ظنية وليست قطعية أو نهائية، بل تبقى معرضة للنقل ومحلا للنقاش على الدوام.

ولعل الحركة التأويلية في الاسلام مرت بهذه التجربة، فانصبت اهتماماتها على مناقشة كتاب الله (القران) فأخرجت منه كل المعاني التي تتشكل منها عناصر الثقافة الاسلامية، وتتألف منها مكونات الايديولوجية الاسلامية، وان كانت تلك العناصر والمكونات تنم عن تباين واختلاف فيما بينها لأنها متشبعة بقضايا الفلسفة وعلم الكلام، ولكن ربطهما بالقرآن عن طريق التأويل الممنهج، البسهما غطاء الشرعية الاسلامية.

لقد صار التأويل علما اسلاميا شرعيا في مقابلة علم التفسير ولكن يختلف عنه في الفكر لأنه مرحلة من التفكير سابقة للاشكالية.[17]

ان الالفاظ في العربية تحمل معاني متعددة، وغالبا ما يذهب الذهن الى معنى معين يعتبره قمة المعنى المقصود، والقمة المعنوية التي تحدث في اطارها الفكرة العامة يتوصل اليها الذهن الفاحص، والفحص طريقة استنتاجية استنباطية يستخدم فيها الذهن مراوغات وحيل تأخذ بعين الاعتبار سياق واسلوب والعناصر البلاغية الخرى و النحوية والتركيب الصرفي و البناء اللغوي الخ...

هل معنى ذلك أن القمة المعنوية خفية، وأن الذهن هو الذي يستخرجا بعد التدابير، المفترضة في تحديد الشكل النهائي للمعنى المستخرج؟

ان المؤولين يحددون منذ البداية القمة المعنوية فهي مقررة عندهم بالعقل بفعل الثقافة والاتجاه المذهبي، الذي ينتسب اليه، فالثقافة والتوجهات المذهبية هي التي تحدد القمة المعنوية.

وطريقة الاستنتاج ليست في حقيقتها وسيلة برهانية فحسب وان بدت كذلك، بل هي غاية في حد ذاتها، وبمجرد التمكن منها يحصل النجاح للأفكار المذهبية وتكون لها الغلبة و الانتشار.

التأويل و التوظيف الايديولوجي في فكرنا المعاصر:

غالبا ما يكون الخطاب الديني ينطلق من تحليل النصوص الدينية أي القرآن و الحديث بالدرجة الأولى وخاصة في التيارات الدينية المعاصرة مرتبطا بالمهام الايديولوجية، وتوظف تلك النصوص توظيفا يصب في اطار توجهاتهم السياسية كحركات معارضة للسلطة الحاكمة، وتخدم كياناتهم التي تبحث لها عن تموقعات في المجتمعات الاسلامية و الدول الاسلامية، وهنا بطبيعة الحال يتحول الجهد التأويلي الى ليٍ عنق النص حتى يكون مطواعا يقدم لتلك التيارات و الجماعات ما تريده من المعاني ليصبح وجودها متكيفا مع مفهومات النصوص الدينية، وبالتالي تصير مقبولة في مجتمع يعطي الاولوية للنص الديني في الحكم على المستجدات و المستحدثات في الأفكار و الممارسات و الوسائل و نجد هذا التوظيف حتى في الحركات الجهادية التي رغم نفورها من التأويل واعتبارها له منهجا غير سليم، الى أنها استخدمته ضمن وسائلها الادعائية لتبرير أعمالها ومواقفها، أو لتقرير أفكارها و مبادئها التي تجاهر بها.

ولقد أدرك الامام علي (كرم الله وجهه) منذ زمن مبكر خطورة هذا التوظيف للنص القرآني خاصة في السجال الايديولوجي و العراك السياسي فحذر من كل تأويل تسيل بسببه دماء المسلمين عامة، فقال وهو يقاتل جيش معاوية في معركة صفين:

"نحن ضربناكم على تنزيله فاليوم نضربكم على تأويله

ضربا يزيل الهامة عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله"[18]

المنارة للاستشارات

انما كان يهم أهل الطوائف وأرباب النحل وأصحاب التيارات الاسلامية الحداثية هو تثبيت أراءهم الايديولوجية و الكلامية و السياسية ولو على حساب طبيعة النص، المهم عندهم استثماره في صراعهم الكلامي أو السياسي سواء كانوا مع السلطة أم مع المعارضة ولم يكونوا يضعون حسابا للشروط اللغوية أو البلاغية، التي سار عليها من قبل الفقهاء و الاصوليون و البلاغيون اذ كانوا يجتهدون في تحديد المعنى انطلاقا من حدود لسانية وبلاغية.

ان تأويل الفرق و الطوائف و التيارات المعاصرة كان تأويلا مربكا للوعي الاسلامي المستنبط من نصوص القرآن و السنة، لأنه اكتفى بصناعة الجدل و بلغة المدافعة والمغالبة.

وفي غمرة الدفاع عن المذهب أو الاتجاه الايديولوجي و السياسي، وفي اطار الحماسة المتزايدة في الرد على المخالفين اهدرت قيمة النص، وطغت التوجهات الذاتية و الانتمائية والتحزبية على التفسيرات، وغابت الموضوعية وروح الحياة.

" اذا كان المجتمع الاسلامي قد جعل همه الاول التكيف مع معطيات النص وفرض سيادته على النصوص الاخرى فان تحقق هذه الغاية كان مرهونا بوحدة المجتمع وعدم تنافر عناصره ومكوناته الاجتماعية، وقد كان من الطبيعي أن يؤدي قيام الدولة واتساع أطرافها الى تعدد في طبيعة القوى الاجتماعية المكونة، وهو تعدد سرعان ما تحول الى صراع اقتصادي، اجتماعي، سياسي، ديني.

وقد افضى هذا الصراع الى تعدد الرؤية والتصورات حول طبيعة النص الديني وحول غايته وهدفه"[19]

فالإسلام الذي كان يدعوا للجهاد واعداد القوة لمواجهة العدو الصهيوني في مرحلة احتدام الصراع العسكري، يعود ليصبح دين الجنوح للسلام مع توجه السياسات العربية الى التحالف مع النظام الدولي الجديد الذي تمثله السياسة الامريكية، واذا كان هذا هو شأن الخطاب الرسمي في غالبية الدول العربية و الاسلامية، فان الخطاب الديني المعارض لهذه السياسات لا يختلف في مسلكه التأويلي عنها كثيرا و الاختلاف الواقع بينهما ليس في

المنارة للاستشارات

استخدام اليات التأويل أو في درجة الغلو والتطرف في ممارسة التأويل كفعل اقناعي يراد منه فرض الرأي ثم الهيمنة على الارادة الشعبية، لكن الخلاف بينهما في طبيعة الايديولوجيا نفسها و الافكار المطروحة اذ سرعان ما ترتدي ثوبا دينيا لكي تكون مقبولة ونجد لها مسوغات داخل المجتمع فتتبناها الجماهير.

ان تأويل النصوص يعد " من أهم اليات الخطاب الديني، ان لم يكن أهمها على الاطلاق في طرح أفكاره ومفاهيمه وتصوراته"[20] . والخطاب الديني المعاصر عندما نتأمله جيدا نجده غير ملتزم بمستويات الدلالة القرآنية وحدود رمزيتها في اطار سياقاتها المتعددة، بل نجده يسعى دائما في حمى صراع القوى الغير متوازنة الى البحث عن الدلالات الموجودة مسبقا في الذاكرة الجماعية لهذه الطائفة أو الجماعة أو الفئة أو الحزب.

" وفي كل الاحوال يتحول النص الديني الى مفعول به، وتصبح الايديولوجيا هي الفاعل، أي تتم صياغة الايديولوجيا بلغة النص، فتكتسب طابع الدين، ومعنى ذلك كله أن هذا المسلك التأويلي لا يتجاهل طبيعة النص ويغفل مستويات السياق فحسب، بل يضيف الى ذلك كله جناية اخفاء وجه ايديولوجيته السياسية بقناع الدين ذاته"[21]

لقد اعتاد علماء السنة منذ القديم على النظر الى التأويل بنظرة منحطة على أساس أنه يخضع لرغبات المؤول في كثير من الأحيان، اذ يستطيع المؤول أن يدس فيه أفكاره التي يتبناها ويريد الترويج لها في المجتمع، ان حركة التأويل خدمت بالفعل مذاهب و طوائف وجدوا لها في التأويل بابا واسعا دخلوا من خلاله الى أذهان الناس وعقولهم بل حتى الطوائف المتطرفة وجدوا فيه منفذا ينفذون منه الى العوام من الناس فالخوارج مثلا مازال لهم أتباع يأخذون أفكارهم برمتها ويطبقونها حتى في هذا العصر، فعن طريق التأويل صار لهؤلاء فلسفة دينية يواجهون بها قضايا الحضارة المعاصرة و اتجاهاتها الايديولوجية المختلفة في السياسة و الاقتصاد و الثقافة و الفن والفكر عامة. وقد نتج عن هذا صراع مدوي تحوّل فيما بعد الى دمار وخراب أصاب كثيرا من بلاد العالم، فكان هناك قتل وسفك للدماء وأشلاء مفتتة وجثث مترامية من جراء التفجيرات و الألغام و السيارات المفخخة و العبوات الناسفة ....الخ

المنارة للاستشارات

والسبب في ذلك كله فتاوى خاطئة صدرت من علماء أساؤوا استخدام ألة التأويل واستخدموها عمدا لترويج بضاعتهم التي أرادوا أن يحملوا الناس عليها عنوة وجبرا وقسوة.

التأويل و ضرورة التقيد بالمنهج اللغوي:

لقد نظر العلماء و الفقهاء الى التأويل وخاصة أهل السنة منهم عبر التاريخ نظرة ارتياب و توجس، ووضعوا له شروطا من اجل أخد الحيطة و الحذر من منزلقاته الخطيرة.

ولعل ما دفعهم الى وضع شروط وقيود وضوابط يرشدون بها الحركة التأويلية هو انصياع هؤلاء المؤولين نحو رغبتهم الجامحة في تحديد تصورات مسبقة حملوا عليها النصوص وجعلوها حقائق عقلية ثابتة لا تتغير، وانما جاءت النصوص لمعاضتها ومساندتها.

واذا اختلف المؤولون في ماهية تلك الحقائق الثابتة فمعنى هذا أنهم سيختلفون كذلك في تأويلاتهم للقرآن ولذلك تحتل المسألة اللغوية درجة الحجيّة عند كل المؤولين على أساس أن اللغة و ما يرتبط بها من مستويات مختلفة في النحو و الاعراب و الاشتقاق و البلاغة تعتبر السلاح الأقوى في كل حجاج بين طوائف المسلمين جميعا ولذلك نجد التأويل في مراحله المختلفة ارتبط ارتباطا متينا باللغة العربية في مختلف مستوياتها لان القرآن نزل بها فقال تعالى " وكذلك أنزلناه قرأنا عربيا "[22] وقال أيضا " نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين"[23] وقال أيضا "ان أنزلناه قرأنا عربيا لعلكم تعقلون"[24].

ويعد التأويل الذي ليس له سند من اللغة يقويه أو شاهد مما قالته العرب يثبته، لا قيمة له ولا أساس له من الصحة، ولذلك راح المؤولون الى اللغة و النظر فيها من أجل الظفر بأدلة قوية يناصرون بها مذهبهم، أو يفحمون بها خصمهم، لانهم يعتبرون اللغة الوسيط الذي تتجلى من خلاله معاني النص القرآني فالرجوع اليها ضروري لا مفر منه لمعرفة حدود الدلالة في القرآن ومناحيها المتعددة، باعتبار القرآن يخاطب مستويات مختلفة من البشر، ولذلك فان فهم النص القرآني و ما يوحي اليه من اشارات الهية لا

ISSN 2437-0819 EISSN: 2602-6333
المنارة للاستشارات

يمكن فهمه الى بتوسط الرموز اللغوية ولذلك لا يمكننا الفهم الا في اللغة وبها كما يقول بومدين بوزيد[25]

ان الوصول الى عمق النص القرآني و النفاذ الى باطنه من أجل الكشف عن معانيه لا يتم الى بواسطة التحليل اللغوي، وتوجيه كلمات النص القرآني و ألفاظه الى المعاني المحتملة التي يبنى عليه النص كهندسة لغوية قبل أن تكون فهما انسانيا واقعيا في الحياة، فالمعرفة الدينية لا تتأسس الى عن طريق القراءة اللغوية لآيات النص القرآني، فالنص القرآني بما أنه كتاب معجز فهو يمثل نهاية اللغة واكتمال معانيها فلم يكن من الممكن القفز على لغته لأنها تشغل حيّزا من مستقبل الانسان وبداية خلقه و المعنى الذي يصيغه بشكل نهائي على حاضره ومن هنا صار كل فعل انساني و الوعي المرتبط به مسبوقان بفعل اللغة ولهذا فان القرآن يشكل خطابا لغويا لا بد من فهمه فهما لغويا لسانيا[26]

ان قاعدة التحليل اللغوي للنص القرآني يعصم أهل التأويل من الانجرار مع أهوائهم، ويقلل من أخطائهم وانزلاقاتهم وانحرافاتهم في اصابة اهداف القران الذي نصبوا أنفسهم للكشف عن غوامضه وابانة معانيه.

الخاتمة

ان التأويل الذي نحن بحاجة اليه هو الذي يحمل روح الاجتهاد و الابتكار وينحاز الى مشاكل الحياة المعاصرة ولا يخضع الى ذاتية المفسر او يتماشى مع أفكاره وطموحاته وقناعاته الشخصية التي يريد لها الانتصار في واقع الحياة.

التأويل الذي نريده هو الذي يقوم على علاقة جدلية بين مكونات المفسر الحديثة وبين المحافظة على روح النص باعتباره صالحا لكل زمان ومكان أي فيه حاجيات الناس الفكرية و الثقافية لكل جيل قادم.

التأويل يعطي الفرصة للمفسر كي يحتوي كل الافكار و المشاكل الموجودة في حياة الناس ويمنحه القدرة على استنتاج التصورات الممكنة واستنباط المواقف المستجدة حسب أحوالها و ملابساتها.

المنارة للاستشارات

الهوامش :

1 محمد الكتاني. جدل النقل و العقل في مناهج التفكير الاسلامي. دار الثقافة الدار البيضاء. ط 1. 1992 ص 437 .

2 محمد عابد الجابري. نحن و التراث. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء ط 5 .1986.

3 محمد الشتوي. اشكالية النقل و العقل في التفكير الاسلامي. مكتبة تونس ط 1. 2015.ص7.

4 نصر حامد أبوزيد. مفهوم النص دراسة في علوم القران. المركز الثقافي العربي-بيروت- الدار البيضاء. ط 1. 2015. ص7.

5 سورة الروم. اية 28.

6 أنظر: بومدين بوزيد. الفهم و النص دراسة في المنهج التأويلي عند شليماخر و ديلتاي. منشورات الاختلاف و الدار البيضاء ناشرون ط1. 2008. ص33.

7 عمارة ناصر. اللغة و التأويل مقاربات في الهيرمينوطيقا الغربية التأويل العربي الاسلامي. منشورات الاختلاف. دار الفرابي. الدار العربية ناشرون ص 100.

8 المرجع نفسه ص 103.

9 نصر حامد أبو زيد. مفهوم النص. ص233.

10 المرجع نفسه ص 233.

11 ابن جرير الطبري. تفسير الطبري. م1. ص30.

12 أنظر محمد حسيني الذهبي، بحوث في علوم التفسير و الفقه و الدعوة. دار الحديث. القاهرة ص 391.

13 بومدين بوزيد، الفهم والنص.ص31.

14 أنظر بومدين بوزيد. الفهم و النص. ص31.

15 أنظر نصر حامد أبو زيد. النص و السلطة و الحقيقة ارادة المعرفة و ارادة الهيمنة. المركز الثقافي العربي ط 4. 2000. ص 159.

16 جلال الدين السيوطي. الاتقان في علوم القرأن،ج2 ص 545.

17 أنظر: مجلة بصمات. ملف العدد التاويل في العلوم الانسانية و الاجتماعية. مقال لمحمد الأسعد. ص24.

18 أورد هذه الابيات بومدين بوزيد في كتابه الفهم و النص. ص34.أنظر الهامش.

19 نصر حامد أبو زيد. مفهوم النص. ص245

20 نصر حامد أبوزيد. النص و السلطة و الحقيقة. ص 91.

21 المرجع نفسه ص 115.

22 سورة طه. اية 113.

23 سورة الشعراء. اية 192-195.

24 سورة يوسف. اية2.

25 أنظر: بومدين بوزيد. الفهم و النص ص34.

26 ينظر في هذا عمارة ناصر. اللغة و التأويل. ص 100-101.

المنارة للاستشارات